مجلة القنطار للدراسات والانسانية والتطبيقية

سلسلة الاداب والدراسات اللغوية المعاصرة

المجال المتحرك والمجال المقدس في أرض الإسلام

من ترجمة أمين البدادي

باحث في الدراسات الإفريقية، جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء

elboudadiamine@gmail.com

تاريخ التقديم 2025/10/28، تاريخ القبول 2025/11/17 ، تاريخ النشر 2025/11/30

الملخص: تقوم المؤسسات الأكاديمية المتخصصة في الترجمة في العالم العربي اليوم كما الأمس القريب بمجهودات كبيرة جدا في تعريب التراث الثقافي الأجنبي العالمي، لاسيما المكتوب في المقام الأول باللغة الإنجليزية والفرنسية والإسبانية، ولا يخفى أن ثمار هذا العمل المظني تجعل نخب الشعوب العربية مواكبة للنظريات والأفكار العالمية الرائدة المنتجة في السنوات الأخيرة في مختلف التخصصات العلمية. بيد أن هذا التوجه يجعلنا أحيانا ننشغل عما كتبه الأكاديميون العرب باللغات الأجنبية، حيث نرى عن قناعة علمية أن أعمالهم لا تقل قيمة وتميزا بالمقارنة مع ما ينشر ويروج في العالم الغربي، وللإشارة فمعظمهم درس وتفوق في كبريات الجامعات الأوروبية والأمريكية والكندية، لذلك ننوه في هذا السياق بضرورة إيلاء أهمية قصوى على مستوى الترجمة بتعريب ما كتبه العرب باللغات الأجنبية حتى يصل منتوجهم العلمي للباحثين والطلبة الذين لا يتكلمون تلك اللغات في عالمنا العربي. وعموما يهدف هذا العمل الأكاديمي إلى ترجمة دراسة **"المجال المتحرك والمجال المقدس في أرض الإسلام"**، نظرا للقيمة المعرفية والمنهجية التي تحوزها، وجعلها في متناول الباحثين الذين لا يجيدون اللغة الفرنسية، للاستفادة منها، حيث تقارب موضوع شائك قلما أثير في الدراسات التاريخية المعاصرة.

كلمات مفاتيح: المجال المتحرك، أرض الإسلام، الزمن، الرحلات، المقدس.

The moving field and the sacred field in the land of Islam - Translated by Amine El Boudadi-

Specialist in African studies- **elboudadiamine@gmail.com**

Abstract : Academic institutions specializing in translation in the Arab world today, as in the recent past, are making significant efforts to Arabize foreign cultural heritage, particularly that written primarily in English, French, and Spanish. It is evident that the fruits of this arduous work enable the elites of Arab nations to keep pace with leading global theories and ideas produced in recent years across various scientific disciplines. However, this trend sometimes distracts us from the writings of Arab academics in foreign languages, as we believe on scientific grounds that their works are no less valuable and distinguished compared to what is published and promoted in the Western world. It is worth noting that most of them studied and excelled in major European, American, and Canadian universities. Thus, we emphasize the utmost importance of translating what Arabs have written in foreign languages so that their scientific contributions reach researchers and students in the Arab world who do not speak those languages. In general, this academic endeavor aims to translate the study 'The Mobile Domain and the Sacred Domain in the Land of Islam,' due to its significant knowledge and methodological value, making it accessible to researchers who are not proficient in foreign languages.

Keywords: mobile domain – land of Islam – time – journeys – sacred.

مقدمة:

ملاحظات عامة حول مفهوم المجال:

مؤكد أنني سوف لن أقوم بمداخلة مفصلة بشكل جيد ومبنية على أسس قوية. ولكنني أود ان ألتزم معكم بالتفكير، والتساؤل حول مفهوم المجال في بلاد الإسلام، وهذا من خلال مخطوط مغربي غير منشور. حيث يعتبر كدليل موجه للحجاج، والذي سيكون لنا كلام بشأنه لاحقا. هذا المخطوط تركه فقيه شغوف بالأسفار، فأصبح بسبب ذلك خبيرا بالنسبة للذين يرغبون في زيارة الأماكن المقدسة. إذن كيف يمكننا التطرق لمفهوم المجال من خلال رواية تتمحور حول تنقل المسافر؟ هل كان لدى الكاتب وعي مسبق؟ وكيف تطرق لهذا المجال؟ وعلى أي مستوى ولأي غرض؟

الفرضية التي وضعناها تنطلق من ملاحظة بسيطة، قد تكون لها قيمتها الخاصة ولكن على الأقل لها ميزة فتح آفاق للبحث وتوظيف منهج المقارنة في هذا السياق. وهي التي ستساعدنا على الفهم بشكل أفضل لتحديد موضوع دراستنا.

هذه الفرضية تقودنا إلى القول، وربما بشكل مبالغ فيه، أن المجتمعات التي تتمكن من السيطرة وإدارة مجالاتها بفعالية هي تلك التي تسير على طريق التقدم والحداثة، استخدم هنا هذا المفهوم بمعنى المسؤولية الفعالة. وعلى النقيض من ذلك فإن المجتمعات التي تستمر في تصور أراضيها كوحدة مجزأة غير مستمرة وغير متحكم فيها، تواجه دائما مشاكل في الاقلاع والتتحرك مع بقية العالم.

من جهة أخرى، ينظر إلى المجال ككل متكامل يتم إدارته بهدف تلبية الاحتياجات اليومية والوصول إلى تضامن عام غير محدود بمكان معين. ويشمل هذا التضامن السعي لمكافحة الكوارث الطبيعة ومحاولة دائمة للسيطرة عليها وتوجيه إدارة حكيمة ومدروسة للوصول بها إلى مستوى أعلى، كما هو الحال في هولندا.

من جانب آخر، ينظر إلى المجال كمجرد تجاور أو إحصاء متتال لمواقع وأماكن دون روابط أو تماسك بينها. وفي الحالة التي نناقشها هنا، يستخدم المؤلف كلمات مثل: "أماكن"، "مواقع"، "مسارات"، "بلدان"، و"مراحل" للإشارة إلى المجال.

النص يطرح إشكالية أخرى ترتبط ارتباطا وثيقا بما سبق ذكره، وهي ثنائية المجال: المجال المقدس والمجال المدنس في العالم الإسلامي بشكل عام وفي المغرب بشكل خاص. إذا كان المجال المقدس منظما، محددا، حقيقيا وموجها باعتباره مكانا للعبادة أو للإيمان، فإن المجال المدنس كما يمكنكم أن تتصوروا، يمثل الامتداد المظلم الذي يحيط بالأول ويهدده باستمرار.

فما هي إذن العلاقة بين المجالين هنا وفي أماكن أخرى؟ من يستفيد من هذه الثنائية؟ ألا تمثل استمرارا وتعزيزا للانقسام التقليدي بين المعنوي والمادي وسيطرة الأول على الثاني في بلاد الإسلام؟ بمعنى أخر، تفوق منطق الفقهاء على منطق من يديرون الحياة اليومية؟

1. المؤلف والنص في سياقهما:

أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر، المعروف أكثر بلقب " العياشي" (1629 – 1679)، نسبة إلى جبل العياشي. كان المؤلف من أتباع الطريقة الدلائية. أسس والده زاويته الخاصة حسبما تقتضيه الزوايا في الأطلس الكبير الشرقي عام 1634 – 1635. تعرف هذه الزاوية باسم الزاوية العياشية أو زاوية سيدي حمزة، وتقع على ضفة أحد روافد

وادي زيز جنوب ميدلت. كانت زاوية جبلية غنية بالمياه وتقع في خط مرور القوافل التي تربط فاس بواحات تافيلالت. وتعتمد تعاليم هذه الزاوية على الطريقة الشاذلية. تأسست الزاوية العياشية في أراضي قبائل البربر: آيت عياش، واتحاد آيت إفلمان (آيت حديدو، آيت مرغاد جنوبا، وآيت زداغ في الجنوب الشرقي).

كان أبو سالم العياشي في السابعة من عمره عندما أسس والده هذه الزاوية، نشأ في أسرة من العلماء الذين كانوا يدرسون العلوم، وخاصة العلوم الدينية، وتلقى أولى معارفه على يد والده.

كان معروفا بروح متفتحة، وهي صفة اكتسبها من الأجواء الأسرية، وخاصة شغفه الكبير بالاكتشافات وحبه للسفر. وأظهر هذا الفضول تجاه سياق تاريخي متقلب وصعب للغاية، حيث عاش في واحدة من أصعب الفترات في تاريخ المغرب.

خلال تلك الفترة، شهد المغرب أزمة كبيرة أدت إلى نشوب حرب أهلية بعد وفاة السلطان السعدي أحمد المنصور عام 1603. واستمرت هذه الأزمة لأكثر من نصف قرن، وانتهت بتغيير السلطة، حيث حل العلويون محل السعديين. وهذه الأزمة دمرت كافة المؤسسات وأضعفت السلطة المركزية، مما أدى إلى تعزيز الطموحات والمزايدات السياسية الإقليمية والمحلية.

كان المخزن السعدي في مرحلة الانهيار بينما كانت الزاوية الدلائية تبرز على الساحة السياسية في الأطلس المتوسط، حيث كانت تعتبر حينذاك المركز الثقافي الأهم في المناطق الريفية. فلقد لعب أتباعها دورا كبيرا في نشر تعاليمها وأفكارها داخل المغرب وخارجه. وكان لهذا المركز السياسي والثقافي جميع الوسائل للانطلاق من الأطلس الأوسط من أجل الاستيلاء على السلطة السعدية المنهارة. لكن لماذا فشل أتباع الدلائيين في تحقيق هذا المشروع السياسي؟ وما الذي أدى إلى فشل هذه الحركة البربرية في الأطلس الأوسط؟ هل كان السبب، كما أشار جاك بيرك، هو غياب الطموحات السياسية؟ لكن يبدو أن الطموح لم يكن ينقصهم، ولكن العوائق كانت مرتبطة بتشتت الأراضي الجبلية التي تقع فيها زاويتهم، وظهور فكرة النسب الشريف كإيديولوجيا تعزز الشرعية السياسية للعلويين المنحدرين من سلالة النبي.

وجد العلويون في تافيلالت مهدا لنشأة عائلتهم الحاكمة، بالإضافة إلى الدعم المادي والأسس الاجتماعية والثقافية الضروريين لحركتهم. كما تمكنوا من تبني استراتيجية تتماشى مع الظروف. فقد استفادوا من ابتعادهم عن الأحداث الجارية بين الجمهوريتين الموريسكيتين في الرباط وسلا والدلائية، حيث أن الاستغلال المحكم لهذه العوامل مكن العلويين من التفوق في صراعهم على السلطة على جميع خصومهم السياسيين، بما في ذلك أتباع الطريقة الدلائية.

بعد وصولهم إلى السلطة وخوفا من تهديد أتباع الطريقة الدلائية، قام العلويون بتدمير زاويتهم ثم نفوا أو قتلوا أتباعها. فلقد نشأ أبو سالم في هذه الأجواء المليئة بالخوف والصراعات السياسية، ورغم هذه الظروف الصعبة، وربما بفضلها، كرس نفسه للعلم. حيث أثرت كتاباته العديدة في المكتبة العربية، إذ تناولت مؤلفاته مواضيع ثقافية ودينية متنوعة، وترك لنا اثنتي عشر كتابا في الفقه، وأربعة في التصوف، وفهرسين في اللغة العربية، وثلاث مجموعات شعرية، وكتابين يوثقان رحلاته إلى الأماكن المقدسة في عام 1649 و1654 و1661.

اشتهر أبو سالم العياشي باتساع معرفته الجغرافية، وكانت أبرز أعماله في هذا المجال هي رحلته الشهيرة، التي عُرفت بـ "الرحلة العياشية" على اسمه، ولها أيضا عنوان آخر "ماء الموادي" نشر في مجلدين. إن قراءة هذا العمل تظهر المعرفة الهائلة لهذا المؤلف ليس فقط في الرحلات عبر الصحراء في القوافل، ولكن أيضا في الموضوعات الجانبية المختلفة التي تناولها في روايته عن الحج، وإلى جانب هذا العمل، ترك المؤلف كتابا صغيرا والذي يحمل اسما معبر جدا وهو "الرحلة

الصغرى" كما ترك ايضا كتاب معنون بـ" التعريف والإيجاز ببعض ما تدعو الضرورة إليه في طريق الحجاز"[1]. في الحقيقة هي رحلة بلا مسافر. فهي عبارة عن دليل مكتوب بأسلوب أدبي لطيف، فهي مخطوطة صغيرة تجمع بين قصة السفر والدليل. وكان الغرض منها مساعدة أحد أصدقائه وهو أحمد بن سعيد المجيلدي المتوفى سنة 1682 أو 1683. وكان هذا الأخير قاضيا بفاس ثم مكناس في عهد السلطان إسماعيل. ولقد كتب أبو سالم هذه المخطوطة على شكل رسالة موجهة إلى هذا الصديق الذي قرر الحج، وكان الهدف الذي سعى إليه المؤلف هو إعطاء جميع الحجاج بشكل عام وهذا القاضي بشكل خاص أقصى قدر من النصائح العملية لمساعدتهم على تحمل الصعوبات والمخاطر التي تحيط بهذه الرحلة الخطيرة والتغلب عليها. يشكل هذا المخطوط نوع خاص من الكتابات لكنه ليس منعزلا عن غيرها من الكتابات، حيث قام الاخرون بكتابة نفس النوع لكن بعد العياشي بفترة طويلة، لكنهم لم يفعلوا ذلك نثرا مثله ولكنهم فضلوا القيام بذلك شعرا، لأنه كان سهل التعلم. فعلى سبيل المثال يمكننا أن نذكر أمير تلمسان الذي نظم أكثر من 335 بيتا في 1738م، وعبد القادري علي زبادي الفاسي الذي نظم في عام 1749 حوالي 129 بيتا. فكيف يمكننا قراءة هذا النص لتحديد العناصر التي من شأنها أن تخدم فرضيتنا الأولية، وهي مجال الحركة والمجال المقدس أو غير المتحرك؟

2. المجال المتحرك والزمن العادي

الهدف ليس اتباع مقاربة معينة لإعطاء التعريف لمفهوم المجال، ولكن تحديد المحتوى الذي نقدمه هنا لمساحة الحركة من أجل تجنب أي سوء فهم. فالعبارة لا تستخدم بمعنى ديناميكية مدروسة وبناءة، بل بمعنى حركة قافلة الحجاج من المغرب نحو الأماكن المقدسة. تم تصميم تنظيم القافلة وهياكل القافلة على غرار تلك الموجودة في المدينة[2]، تسمح لنا هذه القافلة المتحركة بعمل مقطع عرضي لجميع المساحات التي تعبرها على طول المسارات التي تستغرقها للتوقف وعبور المدن والأسواق. بمعنى آخر تسمح لنا هذه الحركة بفهم الحياة اليومية والتعامل معها، أي لمعرفة المجالات الفزيائية والاقتصادية والاجتماعية أو الذهنية. إن القافلة ملزمة بالاستجابة على طول الطريق لاحتياجات الحجاج والأشخاص الذين تلتقي بهم على طول طريقها. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الحاجات المادية الضرورية للحياة مهمشة ومرتبة في المرتبة الثانية في رواية المؤلف الذي كان الأهم بالنسبة إليه هو الرحلة إلى الله. فهو مقتنع بأن الحاج سيواجه بالتأكيد صعوبات، ولكن الله سيكون دائما موجودا ليسهل له الطريق[3]. لقد كان انطلاق قوافل الحجاج، حدث عام بالنسبة للمغاربة، فالحج هو بالنسبة لكل مؤمن لحظة أمل ورغبة كبيرة في النجاح في بداية جديدة، وبعبارة أخرى، هو نقطة التحول فيما بقي من حياته. ويعتبر الحج ولادة جديدة تعيد المؤمن "الجديد" إلى الطريق الصحيح، وعلى كل حال، هكذا يجب أن نفهم موقف المغاربة الذين لا يقومون بهذه الفريضة الدينية وهذا طبعا بالنسبة للذين يملكون الإمكانات المادية للقيام بذلك، ولا يؤدون هذه الفريضة إلا في أواخر حياتهم[4]، لأن الحج في عقليتهم هو نهاية رحلة وبداية أخرى. فإذا كانت قد سيطرت على الفترة الأولى من حياتهم حب الدنيا وشغف الحياة المادية، فإن الذي ينطلق مع قافلة الحج سوف يدشن بداية حياة جديدة مناقضة للأولى حيث يهيئ المؤمن لرحلة عظيمة وأخيرة هي الموت.

وإذا كان الحج يشكل بالنسبة للذين يذهبون اليه انطلاقة كبرى ورمز النجاح، فإنه يُشعر الذين بقوا بإحباط هائل وهو ما ترويه أغنية شعبية بهذه العبارات: " دعونا نعجب ونتأمل القافلة التي تغادر المغرب إلى الأماكن المقدسة،

[1] أبو سالم العياشي، الرحلة الصغرى، مخطوط، تحت رمز (ب – ج).

[2] محمد المنوني، ركب الحاج.

[3] العياشي، الرحلة الصغرى، المرجع السابق.

[4] تم تصميم هذا النهج على غرار رحلة الحج الأخيرة للنبي والتي تسمى حجة الوداع.

وتترك ورائها في حالة من الإحباط والفوضى، أولئك الذين لا يستطيعون الذهاب للقاء سيدنا محمد الحبيب جاء العديد من الأشخاص من مراكش وسوس متحدين كل المخاطر لتجربة لحظة المتعة هذه وحضور مشهد المغادرة الكبير."

يبدأ التقويم الإسلامي، كما يعلم الجميع بهجرة النبي، أي برحلة تأسيسية قام بها الأخير أثناء هروبه من مكة التي وُلد بها، نحو المدينة أين توفي. ومن الواضح أن هذا كان له تأثير حاسم على عقلية المسلمين. ويعتبر المؤمنون هذا المنفى بمثابة الفعل التأسيسي والمؤسس للأمة. ومن المناسب أن نتوقف لحظة على المجال الدلالي لكلمتي "الشرع" و"الحج" في اللغة العربية: فاتباع الشريعة هو السير على الطريق الصحيح..، وقد جاء أصل هذه الكلمة من الشارع وتعني الطريق. وكلمة الحج هي استخدام سامي قديم. ففعل الحج يعني أن تقوم بالدوران أو ببساطة السير[5]. إن المعاناة والصعوبات التي يواجهها الحاج لا يمكن مقارنتها بما سيكسبه. فالمغامرات والعقبات التي سيفرضها عليه الطريق والمخاطر المناخية ما هي إلا إثراء لتجارب من شأنها أن تقوي شخصيته الإسلامية. وهكذا، يكون الحاج مستعد ذهنيا لتحمل وعيش كل التجارب أو حتى الاستفادة منها. يستشهد المؤلف ب " شليني" و "برانهوم" بقولهما:" إنه عند النظر إلى التجربة بعمق ستلاحظ في الحج عناصر أنثروبولوجية، تجارب، وتفعيلات حيوية[6].

السفر إلى الحرمين هو السفر نحو الله ورسوله، أي التوجه نحو الخلاص المطلق. فكيف يترجم كل هذا في السفر؟ ما الذي يدفع الحاج إلى تقوية الروحانيات على حساب الحياة اليومية؟

بعد أن قام المؤلف بالعديد من الرحلات داخل المغرب ومكة، قرر مشاركة تجاربه مع أولئك الذين يقررون الذهاب إلى هناك. وفي هذا الموضوع نرى أن عناصر معينة تظهر في خطابه كعوامل محددة. ومن بين تلك التي تحدد الرحلة وتوجهها، حسب رأيه، هناك قبل كل شيء مشكلة الماء، وهو عنصر حيوي. لهذا يخصص له المؤلف مكانة أولية في روايته. فهذه الكلمة تستخدم خمس مرات في نفس الجملة "واعلم، كما يقول، أنك عندما تغادر سجلماسة وبعد نصف يوم من المشي، تجد المياه العذبة في منطقة الكراكرا. وبعد نصف يوم من المشي، ستدخل إلى منطقة تالغمت حيث الماء أفضل بكثير وقبل المغادرة خذ ما ستحتاجه لمدة يوم ونصف، وهو الوقت اللازم لعبور الحمادة. المياه التي ستجدها في دالي سيئة للغاية. وبمجرد الابتعاد عن هذا الموقع وبعد نصف يوم، ستجد أبار السهيلي حيث المياه فيها جيدة إلى حد ما مقارنة بالمياه في المناطق السابقة. ثم ستصل إلى ماء وادي صفصاف ووادي كوير، وماؤه سيء غير صالح للشرب[7]. ويعتبر المؤلف الماء عنصرا أساسيا، ليس لنجاح رحلة الحج فقط، بل أيضا وقبل كل شيء لبقاء الحجاج أحياء. وقال:" سيتعين عليك تحمل الحرارة الجهنمية في طريقك، وستكون احتياجاتك من الماء أكبر بكثير مما تتخيل، وسوف تتجاوز بكثير احتياجات طعامك. لذا كن حذرا وتأكد من الخاص بك من الغذاء أولا وقبل كل شيء الماء"[8]. ولا توجد صفحة لم يذكر فيها كلمة ماء، وأحيانا مرتين في نفس السطر وستة عشر في نفس الصفحة[9].

معرفة العياشي بالطريق دقيقة للغاية. ويكفي أن نرى كيف يتحدث عن المراحل المختلفة التي مرت بها القافلة من خروج القافلة من فاس حتى وصولها إلى الأماكن المقدسة. إنه يعطي ويوجه قارئه بوضوح نحو الأماكن الآمنة، ومصادر

[5] جان شليني، هنري برانهوم، تاريخ الحج غير المسيحي: بين السحر والمقدس: طريق الآلهة، هاشيت، ص. 367.

[6] المرجع نفسه، ص. 20.

[7] العياشي، الرحلة الصغرى، ص. 306.

[8] نفسه، ص. 312.

[9] نفسه، ص. 310.

المياه، والزوايا، والأولياء، والمساجد. ويستشهد بالحجاج ويشجعهم على مقابلة العلماء الذين يعيشون في المناطق المختلفة التي كانت ستعبرها القافلة. ويقدم تفاصيل حول الأماكن والعادات وحتى الأشخاص الذين التقى بهم في الماضي والذين لايزال يحتفظ بصداقات معهم. وفي هذا الصدد، دعونا نذكر على سبيل المثال ما قاله عن بسكرة :" إذا وصلت إلى بسكرة، حاول أن تحصل على كل ما ستحتاجه بعد ذلك...لأن المنتجات ليست باهظة الثمن ولا تتردد في زيارة الموقع الطيب والكريم سيدي محمد بوعلي".[10] ويجمع المؤلف في وصفه للطريق بين قياسين، أولا من حيث المسافة:" من عين ماضي إلى قرية تاهمو ومن هناك إلى الأغواط يجب أن تحصل على كل ما تحتاجه لقطع ست خطوات"[11]. ومن ناحية أخرى، من حيث قياس الوقت : "خذ من سجلماسة كل ما تحتاجه لمدة شهر[12]". ومن الممكن القراءة من المراحل لإبراز خصوصية كل من هذه المساحات المتفجرة. تحتوي المخطوطة على معلومات مادية واقتصادية واجتماعية مثيرة للاهتمام للغاية حول المناطق المختلفة التي زارها المؤلف. وسأسلط الضوء هنا ببساطة على مشكلة أخرى لفتت انتباهه، وهي التجارة وأمن مساحة الحركة هذه.

تعتبر القافلة ومختلف مراحل الرحلة مجالات اقتصادية معترف بها، وتشكل مؤشرات مميزة لدراسة آليات المنظومة التجارية الصحراوية. فلقد عرف هذا النظام قبل هذه الفترة، حالة من التراجع، كما أشار ابن أبي محلي عندما تحدث عن نهاية سجلماسة في بداية القرن السابع عشر[13]. وفي النص الذي يهمنا هنا، أكد العياشي بشكل كبير على تكامل المساحات الإقليمية التي تعبرها القافلة. وينصح الحجاج بشراء المنتجات حيث تكون متوفرة بكثرة وأرخص ثم إعادة بيعها في المناطق التي تكون نادرة وباهظة الثمن. قبل مغادرة فاس يطلب المؤلف من المسافرين شراء منتجات مثل الجلود الحمراء والتوابل، وهذه المنتجات مطلوبة بشدة في مناطق معينة ويمكن أن تكون قيمتها، أعلى من قيمة الذهب والعملات المعدنية حسب قوله [14]. ويدعو المسافرون شراء الإبل من بسكرة لأنها ليست باهظة الثمن في هذه المدينة لبيعها في جربة حيث تكون باهظة الثمن، وقال في هذا الموضوع :"بيعوا حيواناتكم في جربة، لأن سكان هذه الجزيرة مهتمون دائما بالحصول عليها أكثر من أي مكان آخر..، واشتروا من هذه الجزيرة زبيبا وزيتا وثيابا"[15]. ويقترح المؤلف على الحجاج استغلال إقامتهم في برقة لشراء ما لم يتمكنوا من اقتنائه في جربة مثل الأقمشة أو الشاشية أو غيرها، [16] ولا يكتفي العياشي بإخبار المسافرين بما يجب عليهم شراؤه وبيعه بل يسمح لهم بذلك، نفسه ليعطيهم دروسا في فن التجارة :" لا تدع نفسك تهتدي في مشترياتك بالأسعار المنخفضة... ولا تتخذ قرارات متسرعة أبدا لأنك قد تندم عليها لاحقا"[17].

المشكلة الكبيرة التي تواجه القافلة هي عدم أمن الطرقات. منذ البداية يؤكد المؤلف على ضرورة كفاءة دليل القافلة. بالنسبة له فقط أدلاء فكيك القادرون والموصى بهم. كان يشك فيمن هم في فاس. " إذا انضم أهل فكيك إلى القافلة في سجلماسة، فاقترب منهم ليكونوا لك مرشدين، لأن أمير القافلة من فاس الذي ستغادر معه ليس له خبرة

---

[10] نفسه، ص.307.

[11] نفسه، ص. 307.

[12] نفسه، ص. 307.

[13] نفسه، ص. 305.

[14] ابن أبي محلي، سجلماسة، مخطوطة المكتبة.

[15] العياشي، المرجع نفسه، ص. 304.

[16] نفسه، ص.308.

[17] نفسه، ص. 310.

بالطريق"[18]. وتشكل عمليات السرقة والاعتداءات المتكررة التي يقوم بها البدو العرب من المخاطر الكبرى التي ستواجهها القافلة[19]. ولهذه الأسباب، يطلب المؤلف من الحجاج ألا يبتعدوا كثيرا عن القافلة وأن يكونوا دائما يقظين ومستعدين لكل الاحتمالات. كما أن اقتناء الأسلحة النارية أمر ضروري[20].

وبالتالي فإن القافلة المتحركة هي مساحة تسمح للناس بالسفر والشراء والبيع والتبادل لتلبية الاحتياجات اليومية والعادية ولكن الحيوية للأفراد والمجتمعات على حد سواء. وعلى الرغم من هذه الأهمية، ظلت هذه الاحتياجات اليومية مهمشة مقارنة بالمكان الذي يشغله المقدس الذي يقوم عليه كامل العملية التي تحرك الرحلة. ويبدو واضحا أن القافلة شكلت العنصر الأساسي في النظام العابر للصحراء الذي كانت أنشطته مندمجة بشكل كبير في المجالات الإقليمية والمحلية التي عبرتها القافلة.

3 – التسلسل الهرمي للمجالات المقدسة

ومن المثير للاهتمام التركيز على تأثير المقدس في إدارة حركة القوافل والحياة اليومية للحجاج. يجب علينا أولا أن نتفق على معنى المجال المقدس؟ أنه المكان الذي شهد ذات يوم ظاهرة إلهية وعاشها الإنسان. ومن الواضح أن هذه المساحة ليست متجانسة [21] لدرجة أن بعض هذه المجالات قوية وأكثر أهمية مقارنة بأخرى. وبناء على هذه الملاحظة، نلاحظ أن العياشي، كمؤمن، يقدم لنا مساحات مقدسة هرمية، ولإقناع متلقيه، يستخدم رواية متعددة الأوجه. الحج دعوة، قد يتساءل المرء كيف يتحدث المقدس إلى المؤمنين؟ فالرحلة تشكل كيان الحاج وتصقل شخصيته الدينية. فهو يسمح لهذا الأخير بأن يقوم بمخرج مزدوج: أولا يسمح له بالتخلص من كل ما يمكن أن يضر بسلوكه الديني. ولكي يمحو ما يدنسه، ويطهر روحه، على الحاج أن يستسلم لقبول كافة الصعوبات ومواجهة مخاطر الرحلة، وذلك بزيادة الجهد الجسدي والمعنوي، والتسلح بالصبر. يقول العياشي :" واعلم أن ما ستحتاجه في هذا الطريق هو الصبر أولا الصبر دائما لأنه كنز لا ينضب أبدا، ويجب أن يكون شعار سلوكك"[22]. والنزهة الثانية التي يقوم بها الحاج هي الذهاب إلى لقاء الله ورسوله. بالنسبة للكاتب، الأماكن المقدسة هي للمؤمن مساحة المنفى من كل شرور الحياة وشوائبها. يتيح لنا الطريق أن نبني، من خلال الصعوبات المخاطر، المجال السامي، أي الفضاء الإجمالي الذي ليس في الواقع سوى مكافأة لكل التجارب والتضحيات التي كان عليه أن يتحملها ويتحملها بالتضحية بالنفس والصبر من أجل الوصول، عبر جميع المراحل الوسيطة، إلى القمة المقدسة الأخيرة.

المساجد هي أولى الفضاءات التي ترافق الحاج في رحلته نحو الأماكن المقدسة، ونعني بالمسجد ليس فقط المكان المبني والثابت ولكن أيضا أي مكان للصلاة يستخدمه المؤمنون عند الضرورة، ويتم تحديد المساحة حسب موقع القافلة وأوقات الصلاة. ومع ذلك، فالمساجد تتضمن أيضا تسلسلا هرميا في المرتبة، فالأزهر لا يقارن بسائر المساجد في القرى والمدن التي تمر بها القافلة. والأزهر من جانبه هو أسفل مساجد الأماكن المقدسة. وبركة المقابر لها هذا التمييز أيضا،

---

[18] نفسه، ص. 312.

[19] نفسه، ص 305.

[20] هذه المخاطر تمت الإشارة إلى في الصفحات 306 و307 و308 و310 و311.

[21] العياشي، الرحلة الصغرى، المرجع السابق، ص. 305.

[22] لاحظ أن الزمن ليس متجانسا ولا مستمرا، هناك أوقات مقدسة بدرجات ومستويات مختلفة.

لدرجة أن فيها المقابر التي دفن فيها آل النبي والتي تستحق الزيارة، بحسب المؤلف :" زوروا مقبرة الشرفة مع الإيمان الصادق"[23]

هذا التسلسل الهرمي للأماكن المقدسة موجود في كل مكان وعلى جميع المستويات في عقلية وذهن هذا الفقيه. الأولياء البارزون لهم إشارة خاصة جدا: الشاذلي في تونس، وزروق في سيرت. لهذين القطبين مكانة مهمة في المخيلة الشعبية التي استثمرت فيهما البركة والقوات غير المتناسبة. ولكل من القطبين حزبه الخاص من الصلاة ليحفظها عن ظهر قلب ويتلوها في لحظات محددة حتى يمكن اللجوء إلى الصلاة، زروق عندما يشعر بعدم الأمان والخوف أثناء الرحلة. وفي هذه اللحظات الدقيقة يستحب للحاج أن يصلي قائلا صباحا ومساء :" إن لله أسلمت نفسي. هو المسيطر على كل شيء، ولا شيء يمكن أن يعارض إرادته وقوته...ما يريده الله يحدث وما لا يريده لن يحدث... أعلم أن الله قادر على كل شيء وأطلب منه أن يحميني من أهوائي ومن أذى الناس والسباع"[24]. ولسلامته يجب على الحاج أن يقول هذا الدعاء ثلاث مرات في الصباح وثلاث مرات في المساء مع شعائر الحركات الكاملة. ومن هذا المنطلق، ولدفع الخوف والحماية من مخاطر الطريق، يدعى الحاج إلى تلاوة آيات معينة من القرآن الكريم، وكذلك أحزاب الأولياء الآخرين مثل الشاذلي النووي وغيره. يقدم المؤلف صلاة تهدف إلى الحماية من اللصوص " باسم جبريل، وميكائيل، وإسحاق، اكفنا من شرور جميع خلقك"[25]

يشكل الوصول إلى الأماكن المقدسة (الحرمين)، المرحلة النهائية من خط سير الرحلة. وهو ذروة البناء العقلي الكامل للحاج. وقد تم تطوير هذا الأمر وتنظيمه جيدا من خلال خطاب مكيف وبذل كل ما في وسعهم للحفاظ على الضغط على القارئ بهدف دمجه في النظام والمنطق الذي أراده المؤلف. ويرى هذا الأخير أن الحج ليس رحلة بسيطة، بل هو إعداد مدروس للرحلة المطلقة التي تتهيأ للحياة الآخرة. وتتغير لهجة روايته بمجرد وصول القافلة إلى الأماكن المقدسة. يهدأ الأسلوب ويبدأ في وصف المساحات بمزيد من البهجة والسعادة. فالمؤمن يصبح ضيف الله ورسوله. يبدأ الحاج الإجراء الضروري ويتردد على الأماكن المقدسة في مكة والمدينة لأداء واجبه بدورتين ولحظتين ساميتين في الكعبة وقبر النبي.

الخاتمة:

في نهاية هذا العرض المتواضع، ما الذي يمكننا أن نستخلصه؟

- إن دراسة المجال في العالم الإسلامي بشكل عام وفي كل دولة من الدول التي تدعي الانتماء إلى هذا العالم هو مشروع مفتوح، إن لم يكن واجبة، لدراسة الأراضي والمدن والأرياف بهدف فهم الحقائق الاجتماعية.
- النص الذي قدمناه يطرح إشكالية السفر وكتابته ويقع على عدة مستويات: أولا على مستوى منطق السفر اليومي فهو يسمح لنا بطرح الصعوبات والمخاطر التي تواجهها القوافل باعتبارها مساحة متحركة. وسرد المؤلف في هذا المستوى يستجيب ويتكيف مع هذا المنطق العادي، من خلال استخدام أسلوب سريع، وجمل قصيرة مع كلمات مختلف الأيام.
- المستوى الثاني روحي. يعتني المؤلف بأسلوبه من خلال استعارة الكلمات والجمل والاستعارات من النصوص المقدسة من الآيات القرآنية والأحاديث والأدعية المأخوذة من أحزاب كبار أقطاب الأولياء (الشاذلي وزروق وغيرهما) ومن أقوال كبار المفكرين والصوفيين المسلمين ابن خلدون، الطرطوشي، ابن الفريد والبوصيري.

---

[23] العياشي، الرحلة الصغرى، المرجع السابق، ص. 304.

[24] نفسه، ص. 304.

[25] نفسه، ص. 306.

- المجال ليس متجانسا، إذ يوجد في العالم الإسلامي كما هو الحال في أي مكان آخر، منتجات فضائية مختلفة نوعيا، ومساحات مقدسة مهمة للغاية، وأخرى هامدة وغير متبلورة. وهذا التمييز يدفعنا إلى طرح أسئلة حول طبيعة هذه المجالات لنعرف هل هي تاريخية أم دينية.
- 4 – تظهر القافلة التي تسافر على طول الطريق أن المساحات تدار على المستوى المحلي من قبل الوجهاء وضمن شبكات العشائر والقبائل والعائلات والطرق الصوفية. وفي هذه الشبكات كان الجاه (المؤثرات) هو العامل الحاسم.
- أخيرا دعونا نقول إن المجال المقدس كان له دائما اليد العليا على المدنس، وأن الأخير يظهر فقد كدعم له. تم إنشاء المساحة من قبل المؤلف بطريقة تدريجية وتراكمية بحيث ينتهي هذا البناء بتأليه عند الكعبة وقبر النبي. تم تصميم هذا الموقف وهذا النهج لتعزيز التعارض الكلاسيكي الموجود في العالم الإسلامي بين الروحانية الغازية التي تحتل المركز والحياة المادية، رغم أهميتها الحيوية، إلا أنها تظل في الهامش. وهذا يثير مشكل العلاقات بين المجالات الإقليمية والمحلية والمجال المركزي. بمعنى آخر، العلاقات بين الفقيه، رمز سيطرة تقاليد المجتمع، والسياسي في مواجهة ضرورات الحياة اليومية. ماذا تفعل بعد ذلك؟ ويجب علينا أن نعالج جذور المشكلة، والتي تنطوي على التشكيك في أنظمة التعليم. ويظل هذا الأخير على جدول الأعمال جميع المجتمعات الإسلامية.

قائمة المصادروالمراجع

ابن أبي محلي .*سجلماسة* .مخطوط.

شليني، جان؛ وهنري برانهوم .*تاريخ الحج غير المسيحي: بين السحر والمقدس: طريق الآلهة* .هاشيت.

العياشي، أبو سالم .*الرحلة الصغرى* .مخطوط (تحت رمز ب – ج).

المنوني، محمد .*ركب الحاج*.

Kaddouri, Abdelmajid. "Espace mouvement espace sacré en terre d'islam". *Basamat: Revue de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines Ben M'sik*, Casablanca, No. 03, (2008): 21-32.